"التعايش الإيجابي وخدمة المجتمع

وعلاقتهما بالنهوض"

بحث مقدم إلى مؤتمر

" سبل النهوض بالجاليات الإسلامية

في أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي "

**الذي ينظمه مركز خادم الحرمين الشريفين**

**الملك فهد الثقافي الإسلامي في جمهورية الأرجنتين**

**د. صالح بن سليمان الوهيبي**

**الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي**

**د.مسفر بن علي القحطاني**

**عضو مجلس الأمناء بالندوة العالمية للشباب الإسلامي**

بيونس آيرس

8-10/4/1433هـ الموافق 2-4/3/2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

**أولاً: المقدمة:**

خلق الله تعالى الإنسان وخلق له زوجه وأسكنهما الجنة متوافراً لهما فيها كل متطلباتهما من غير عمل وجهد، ثم أهبطهما من الجنة ليكوّنا مجتمعاً في الأرض تحول إلى شعوب وقبائل وأمم. وشقي الزوجان فيه للحصول على كل ما يلزمهما مع أسرتهما من مأكل ومشرب وملبس ومسكن للحياة " فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى" (طه/117).([[1]](#footnote-1))

 ومع حرص البشر على الرغد كثرت متطلبات حياتهم وتنوعت، فلم يبق الفرد قادراً على توفيرها جميعاً فاحتاج إلى الاستعانة بما ينتجه غيره منها ويستفيد مما أحدثه الآخرون من جديد لييسر على نفسه سبل العيش ويرتقي بها إلى أحسن الأحوال وأمتعها، فلم يكن له بد من أن يتفاهم مع الآخرين وأن يتبادل معهم الأشياء.

 وهكذا أصبح الإنسان مدركاً لحاجته الفطرية إلى الآخرين ولزمه أن يتعايش معهم ويصبح بذلك مخلوقاً اجتماعياً، يعمل لنفع مجتمعه وحمايته واستقراره ونهوضه، ويبتعد به عن كل ما يسلبه أمنه وراحته ورغده، فيكون بذلك عنصراً إيجابياً بعيداً عن التصرفات السلبية التي تنغّص على المجتمع حياته.

وهذا التعايش الإيجابي وما يقدمه المرء لمجتمعه من خدمات يؤديان إلى نهوض كل مجتمع وتقدمه وازدهاره. فما هو هذا التعايش وهذه الخدمة؟ وكيف يؤديان إلى النهوض بالمجتمع؟

**ثانياً: التعايش الإيجابي:**

إن كلمة التعايش هي مصدر لفعل تعايَشَ؛ ومعنى تعايشوا: أي عاشوا على الألفة والمودة. وأما الإيجابي فهو منسوب إلى الإيجاب، والإيجاب مصدر لفعل أوجب إيجاباً، **فالتعايش الإيجابي هنا يعني العيش مع الآخرين بما يعود عليهم بالخير والنفع بعيداً عن الشر والمضرة.**

1. **حاجة المغترب إلى التعايش الإيجابي:**

وإذا كان كل إنسان بحاجة إلى هذا التعايش الإيجابي لأنه فطرة فطره الله تعالى عليها، فإن الإنسان المغترب عن وطنه وبيئته التي اعتادها هو أكثر البشر احتياجاً إلى هذا التعايش الإيجابي مع المجتمع الجديد الذي دخله مع كثير من الفوارق اللغوية والعقدية والسياسية والعادات والتقاليد بينهما. لقد اختاره لظروف وأسباب مختلفة مع علمه بهذه الفوارق، متغاضياً عنها متحملاً لما سيعانيه من مشقتها في سبيل تحقيق أهداف أخرى له، ولذلك لا بد له من أن يعيش فيه ويقدّم له كل ما يستطيع من عمل وإنتاج، بإتقان وأمانة ليتمكن من الوقوف فيه على قدميه وليحوز لنفسه نجاحاً وليحقق آماله وأحلامه التي من أجلها اختار الاغتراب والبعد عن الأهل والأوطان.

1. **الأسباب الداعية إلى الاغتراب**:

المغترب العربي والمسلم لا يختلف عن غيره من المغتربين في هذا المجال، وقد دفعته إلى هذه الغربة **أسباب عديدة**، منها:

1. أوضاعه الاقتصادية التي جعلته لا يحصل على بعض متطلبات الحياة، وخصوصاً في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين، حين كانت معظم البلاد العربية والإسلامية تعيش في ضعف سياسي واقتصادي وصناعي وزراعي، وهذا ما دفع أعداداً كبيرة إلى المغامرة بالهجرة إلى حيث يتوقعون وفرة العمل ويسر النجاح وسرعة الغنى.
2. التخلف العلمي: حيث اضطر بعض من وجد لديه الرغبة في زيادة تحصيله العلمي إلى الهجرة للغرب بحثا عن أجواء علمية أفضل، إلى جانب حرص حكومات البلاد العربية والإسلامية على ابتعاث أعداد من الطلاب لاستكمال دراساتهم العليا في بلاد الغرب المتقدمة علمياً. وبعض هؤلاء الطامحين إلى التقدم العلمي آثروا البقاء في البلاد التي قصدوها للدراسة بعد إكمال دراساتهم واستقروا فيها وحصلوا على جنسياتها. وقد استفيد من هذه النوعية من المغتربين أنها أمدت الجاليات العربية والمسلمة بطبقة مثقفة من الشباب فكان لهم دور بارز في بعث الحيوية لدى أفراد الجاليات وإنشاء الجمعيات ذات النفع العام والنوادي للجاليات.
3. الضغط السياسي دفع بعضا من النشطين سياسياً في بلادهم إلى مغادرتها فراراً من الظلم الذي كانوا يلاقونه في بلادهم التي لم تتقبل حرية الرأي ومبدأ الشورى ومشاركة الشعب في إدارة شؤون البلاد، وكان لهؤلاء ارتباط قوي ببلادهم، التي من أجلها هجروها، فكان لهم دور بارز في ربط الجاليات بأوطانهم وبآلامها وآمالها، وبملاحقة أخبارها والتفاعل مع الأحداث فيها.
4. **مبادئ ومنطلقات التعايش الإيجابي:**

 ما منطلقات التعايش الإيجابي التي تدل على وجوده لدى فئة معينة أو في مجتمع محدد؟

هناك منطلقات عديدة للتعايش الإيجابي ينطلق منها المسلم, ويمكن ذكر بعضها:

1. إدراك أن الاختلاف بين الناس في أفكارهم شيء طبيعي، كما قال الله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...) (هود/118-119) فجعْلُ الناسِ ذوي فكر واحد أو سلوك واحد هو قتلٌ للإبداع والتطور.
2. أن فهم الآخر لا يعني الاقتناع بما يقوله؛ فالحوار يجري للتعارف والتعايش لا للإقناع والإلزام.
3. أن على كل فرد أن يساعد الآخر على فهم وجهة نظره.
4. أن البحث عن الصواب لدى الآخرين خير من البحث عن الخطأ والعيوب.
5. أن البحث عن الجوانب الإيجابية لدى الآخرين وترك سلبياتهم هو بريد المودة.
6. أن الابتسام في وجوه الناس والنظر إليهم بحب واحترام وإظهار التقدير لهم خلق إسلامي ينبغي التحلي به ونشره بين المسلمين.
7. أن على المرء تقبل اختلاف الآخر والتعايش معه، والإفادة منه في تطوير النفس.

يقول الدكتور أحمد محمود كريمة**[[2]](#footnote-2)**:

"ومما يتصل بهذا التسامحُ والمحافظةُ على الحقوق وتأمينُ العيش الكريم لكل من في الديار الإسلامية**،** قال الله عز وجل: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين" (الممتحنة 8). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ظلم معاهداً أو انتقصه من حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة." ولم يسع الإسلام إلى إلغاء الآخرين: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (البقرة: 62.) وقال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (المائدة : 48).

لقد حرم الإسلام الاعتداء على الأحبار والرهبان المسالمين أو المنعزلين ومن يماثلهم في الرتب والوظائف الدينية, ودعا إلى الإبقاء على حياتهم, وإلى عدم المساس بصحائف كتبهم. وهذا يبرهن على نظرة الإسلام الحانية التي لا تعادلها نظرة في احترام علماء أهل الكتاب. لقد اقتلع الإسلام من القلوب جذور الحقد المنسوب إلى الدين وأقر أن تتعايش الشرائع جنباً إلى جنب. وقال الله عز وجل: "يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون".(آل عمران: 6).

ووقائع التاريخ تشهد بسماحة المسلمين وعدالتهم مع أهل الكتاب؛ فقد حافظ المسلمون الفاتحون على معابدهم وكتبهم، وحرم الإسلام التعرض لرجال الدين ولو في الحرب، وجعل للفقراء والضعفاء منهم راتباً من بيت مال المسلمين، مثل ما فعله عمر بن الخطاب مع اليهودي الهرم الفقير، ومثل ما كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة: "أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل هو وعياله من بيت مال المسلمين". ومنه ما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عَدي بن أرطأة عامله على البصرة: "وانظر فيمن قِـبَلك من أهل الذمة من كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب، فمن الحق له أن يجري عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه".
وعلى هذا فالحرية الدينية والعدالة مع أهل الكتاب مكفولة في الإسلام دين الرحمة العامة.

وقد ذكر السيد عمر بن حفيظ **عشرة ضوابط للتعايش في الشريعة الإسلامية** هذه عناوينها: "عدم الإكراه في الدين، وحفظ حرمة الدماء والأعراض والأموال، وإقامة العدل، والتفريق بين الموادّة والولاء وبين البر والقسط وإحسان المعاملة، واحترام العهود وعدم الخيانة، وجواز التعامل معهم، والتفريق بين أخذ العلوم المادية منهم وبين أخذ العقائد، وحفظ المعروف لأهله منهم، وترك الجدال العقيم وحصره بالتي هي أحسن، وفسح المجال للباحثين منهم عن الحقيقة".([[3]](#footnote-3))

وهذا الذي ذكروه من وجوه التعامل والتعايش مع غير المسلمين كله في ديار المسلمين، حيث العمل بالشريعة الإسلامية وحيث الكثرة والحكم للمسلمين. وهذا أولى بأن يتحلى به المسلمون في ديار الغربة حيث أكثرية الناس غير مسلمين وحيث لا تسود الشريعة الإسلامية. ولذلك يجب أن يكون موقفنا من الآخرين ومعايشتنا لهم وتعاملنا وتعايشنا معهم، في ديارهم أحسن، وأن يكون سلوكنا أقوم وأقرب إلى الأخلاق التي يدعو إليها ديننا ليكون ذلك خير طريقة للدعوة إلى الإسلام، وبذلك نفتح صدور وقلوب من يجاورنا منهم في المسكن والعمل.

**ثالثاً: خدمة المجتمع:**

المقصود بالخدمة الجهود التي ينخرط فيها أي شخص لصالح **المجتمع**، وتشمل تلك الخدمات أموراً عدة مثل: مساعدة كبار السن، والتطوع في مجالات الخدمة العامة, وتنظيف الحدائق، وتنظيف الطرقات العامة،وتعليم الأطفال المعاقين مجاناً، ونشاطات مدرسية تخدم المجتمع...إلخ.

وأكثر تلك الخدمات يؤديها القائمون على المؤسسات الخيرية في المجتمع؛ فالعمل الخيري يمثل قيمة إنسانية كبيرة تتمثل في العطاء والبذل بكل أشكاله؛ فهو سلوك حضاري حي لا يمكنه النمو إلا في المجتمعات التي تنعم بمستويات متقدمة من الثقافة والوعي والمسؤولية. فهو يؤدي دوراً مهماً في تطوير المجتمعات وتنميتها. فالمؤسسات الخيرية تتيح للأفراد الفرصة للمساهمة في عمليات البناء الاجتماعي والاقتصادي اللازمة تكميلا للجهود الحكومية. كما يساعد العمل الخيري على تنمية الإحساس بالمسؤولية لدى المشاركين ويشعرهم بقدرتهم على العطاء وتقديم الخبرة والنصيحة في المجال الذي يتميزون فيه.

ولقد قامت الخدمات التطوعية بدور كبير في نهضة الكثير من الحضارات والمجتمعات ونشر الأفكار في كل العصور، بصفتها عملاً خالياً من الربح المادي في الدنيا؛ إذ إنها ليست مهنة للكسب، بل هي عمل يقوم به الأفراد لصالح المجتمع عامة، تأخذ أشكالاً متعددة بدءاً من الأعراف التقليدية للمساعدة الذاتية إلى التجاوب الاجتماعي في أوقات الشدة ومجهودات الإغاثة إلى حل النزاعات وتخفيف آثار الفقر.

وقد حفل التراث الإسلامي بتأصيل العمل الخيري عقائدياً متخذاً ما ورد من آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة شواهد تعزز قيمة العمل الخيري، ومنها قوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (البقرة 177). فهذا يؤكد اقتران هذا العمل بالعبادة ورضى الله سبحانه وتعالى. كما أكدت ذلك الأحاديث الواردة في فضل العمل الخيري, وهي كثيرة أيضاً، ففي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن لله عباداً استخصهم لنفسه لقضاء حوائج الناس وآلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار فإذا كان يوم القيامة أُجلسوا على منابر من نور يتحادثون إليه والناس في الحساب )، (فيض القدير 2/477).[[4]](#footnote-4)

وقد سجل التاريخ الإسلامي، ما قدمته المجتمعات الإسلامية وقامت به من أعمال الخير التي تعددت وتنوعت سبلها لتشمل الإنسان بمختلف ظروفه الاجتماعية والحيوانَ والأرض، وبما لا يمكن إحصاؤه. وقد عُبّر عن هذا المفهوم بمصطلحات عديدة منها الصدقة والبر والإحسان والاحتساب..إلخ.

**رابعاً: النهوض بالوطن:**

قد يكون للفرد الواحد أو الجماعة عدة أوطان لا وطن واحد، فالبلد الذي ولد فيه المرء هو وطنه الأصلي، والبلد الذي ولد فيه آباؤه أيضاً هو وطنه، والبلد الذي يحمل المرء جنسيته هو وطن له، والبلد الذي يعيش فيه الفرد محباً له مقيماً فيه زمناً وله فيه إخوان وأصدقاء ومعارف ويحن إليه إذا غاب عنه أو أكره على مفارقته ويتوق إلى العودة إليه والإقامة فيه.. هو وطن له أيضاً. فكثير من الناس له أكثر من وطن، لعدة اعتبارات من بينها أن الحدود الحديثة للدول مصطنعة, ومنها أن التنقل صار سهلا فظل ارتباط المرء بوطنه الأول مع حبه للثاني. ومن هنا يكون للمغترب أكثر من وطن، وكلها تكون عزيزة عليه يريد لها العزة والسعادة والنهوض والتقدم، وهو لذلك يحرص على خدمة كل هذه الأوطان التي ولد فيها أو ترعرع على ثراها أو حمل جنسيتها أو وجد رزقه فيها.

ولهذه الأوطان مهما تعددت على أبنائها حقوق كثيرة لا بد من أن يؤدوها لها، أهمها حبها والتعلق بها وتمني الخير والسعادة والعزة لها، والعمل على تحريرها من كل ما يكبلها من قيود، وبذل المال في سبيل إنعاشها، والحرص على تنميتها وازدهارها لتكون شامة بين الأوطان.

وما أكثر ما تغنى الشعراء بأوطانهم يكفي أن أذكّر بما قاله ابن الرومي في حق وطنه عليه:

ولي وطنٌ آليت ألا أبيعَهُ وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا

فقد ألفَتْهُ النفسُ حتَّى كأنه لها جسدٌ إن بانَ غودِرْتُ هالكا

وحبَّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكروا أوطانَهُم ذكَّرتهمُ عُهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا

والمغتربون هم من أكثر الناس تعلقاً بوطنهم الأصلي وحنيناً إليه وتوقاً إلى العودة إليه وتمني أن يموتوا فيه ويدفنوا في ثراه، وما يدرك لوعة المغترب إلى الوطن إلا من أجبر على الخروج من وطنه وأكره على الإقامة في غيره. فهذا أمير الشعراء أحمد شوقي يقول:

وَطَني لَو شُغِلتُ بِالخُلدِ عَنهُ نازَعَتـني إِلَيهِ في الخُـلد نَفسي

شَهِدَ اللَهُ لَم يَغِب عَن جُفوني شَخصُهُ ساعَةً وَلَم يَخلُ حِسّي

ويخاطب السفينة التي يتمنى أن تعود به إلى وطنه:

يا ابنَةَ اليَمِّ ما أَبـوكِ بَخيلٌ ما لَهُ مـولَعاً بِمَنـعٍ وَحَبسِ

نَفَسي مِرجَلٌ وَقَلبي شِـراعٌ بِهِما في الدُموعِ سيري وَأَرسي

وكما قالت ميسون بنت بحدل الكلبية:

فما أبغي سوى وطني بديلاً وحسبي ذاك من وطن شريفِ

وإذا كانت هذه هي بعض حقوق الوطن الأصلي على أبنائه فإن لوطنهم الآخر الذي اختاروه مأوى لهم ومكاناً لحياتهم ومسكناً لأسرهم وميداناً لأعمالهم حقوقاً جساماً، عليهم واجب تأديتها، وذلك بالعمل على أمنه واستقراره وغناه وسعادة المقيمين فيه، والنهوض به إلى مصافّ الدول المتقدمة علماً واقتصاداً وصحة وجمالاً وخلوّاً من كل مظاهر الفقر والمرض والتخلف؛ وذلك بعمرانه بالمباني والمصانع والمزارع التي تعود عليه بالخير واليمن والبركة والازدهار، والحرص على نظافته وتجميله والقضاء على آفاته وأمراضه الاجتماعية، وبالتعاون مع أبناء الجالية في تنفيذ ما يخصهم من شؤونهم الخاصة. وبذلك يعملون أيضاً على الرقي بأبناء الجالية وربطهم بكل ما يعزز منزلة وطنهم الأصلي من لغة وتاريخ وعقيدة وعادات وزيارات، وعليهم أن يحرصوا على أن يكونوا دعاة يتحركون بأعمالهم وسلوكهم وأخلاقهم لا بأقوالهم فقط.

وإذا كان ينتظر من أبناء الجاليات أن يستمروا في التعلق بأوطانهم الأصلية، فإنهم مدعوون أيضاً إلى أن يعملوا على نهضة وطنهم الثاني الذي آثروه بالإقامة فيه، وعلى أمنه واستقراره وعمرانه وازدهاره، وأن يحفظوا له ولأهله والمقيمين فيه كل الود والمحبة والوفاء وأن يغرسوا كل ذلك في أبنائهم، وأن يستمروا على هذه الخلال إن قُدّر لهم أن يغادروه إلى بلدانهم الأولى. والنهوض العام بوطنهم نهوض بالجالية التي ينتمون إليها بخصوصيتها، إلى جانب ما يقدمونه لها من خدمات جليلة.

**رابعا: حاجة الأقليات المسلمة لفقه النهضة وأدبيات التحضر:**

1. **سؤال النهوض وحتمية الفعل الحضاري .**

شكّل سؤال النهضة في نهاية القرن التاسع عشر منعطفاً تغييرياً لدى عدد من مفكري العالم العربي والإسلامي، وبعث روح التجديد في العقل العربي، وأثمر نتاجاً فكرياً عميقاً من خلال ثورة ذلك السؤال الباحث عن أسباب التخلف والضعف والضمور الذي لف العالم الإسلامي آنذاك. حصل هذا الحراك الفكري بعد مرحلة التماس السلمي مع الغرب الناهض والمتقدم في مجالاته الحياتية المختلفة، وكانت مشاريع النهضة الأوروبية تبحث لها عن أراضٍ جديدة تطاولها يد القوة والفكر الجديد للتبشير بعالم حرٍّ آتٍ من الشمال. في تلك اللحظة القاتمة والمتخلفة في عالمنا العربي بدأت محاولات طرح السؤال النهضوي على يد عدد من شهود ذلك التماس الحضاري بين الشرق والغرب. وكان رفاعة الطهطاوي (1873) من أوائل من حملوا هذا اللواء، عندما بدأ ببث الوعي النهضوي في كتابه «تخليص الابريز»، ثم أكمل مساره خير الدين التونسي (1888) في كتابه «أقوم المسالك في معرفة الممالك» حيث بيّن شروط تجديد التمدن الإسلامي ووسائل نهوضه، كما قام عبدالرحمن الكواكبي (1902) بنشر ثقافة النهضة من خلال مقدمة كتابه «أم القرى» في شكل خاص وكتابه «طبائع الاستبداد» في شكل عام. ونشط الحراك النهضوي في شكل اكبر على يد محمد عبده (1905) من خلال جدال التجديد والتقدم الديني مع رينان وهانوتو وفرح انطوان وغيرهم. وكانت هذه الملامح الأولى لفكر نهضوي يستلهم روح الإسلام في فكرته مع تمكين وترسيخ لأدوات التغيير الأوروبي للواقع العربي آنذاك، ربما وجدوها بدايةً مناسبة للانطلاق تحاكي نموذجاً حضارياً صالحاً للاتباع، وهنا لما أقول بداية التفكير في البحث عن الجواب الفلسفي لسؤال النهضة أخص به الخطاب الإسلامي في عصرنا الحاضر، ولكن من حيث التأريخ العملي لطرح هذا السؤال، يمكن أن نجعل ابن خلدون (1406) رائداً في إثارة السؤال النهضوي حول كيفية بناء الأمم والحضارات وكيفية ضعفها وسقوطها في مقدمة تاريخه.

أكد هذا المنحى عدد من الباحثين الذين ربطوا مشروع الطهطاوي والتونسي بالنهج الخلدوني في دراسة النهوض والانحطاط من خلال إعمال الأسباب والمسببات والعلل، كما أن الاستفادة من مضامين المقدمة الخلدونية كان طاغياً في إنتاجهم الفكري ومحاولاتهم التجديدية (انظر: خطاب النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر للدكتور سهيل الحبيب ص 75 - 87، فكر ابن خلدون العصبية والقبيلة للجابري ص 252). ولكن مع بداية القرن العشرين ظهرت مشاريع فكرية أخرى تستلهم العودة الدينية كأساس للتحضر مع حفاظ أشد على الهوية من التأثر بالنماذج الغربية التي بدأت تغزو معاقل التعليم في الشرق الإسلامي، كان روادها محمد رشيد رضا (1935) من خلال مجلته «المنار»، والأمير شكيب ارسلان (1946) من خلال كتابه التساؤلي «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم» والمفكر الهندي محمد أقبال (1938) في كتابه «إحياء الإسلام». بعدها بدأت مرحلة أخرى من العمل الإصلاحي اتجهت فيه الأمور نحو الحماية من التغريب الحضاري ما أدى إلى بروز عدد من الحركات الإسلامية في مقابل تنامي التيارات اليسارية والعلمانية التي جالت أفكارها بحثاً في سؤال النهضة ومأزق التخلف. وللأسف إن هذا الحراك المتسارع في النمو والإثارة الفكرية قد تحول عند الإسلاميين إلى سؤال الهوية والحفاظ عليها وقمع المخالفين والمناوئين، واختزل مشروع نهضة الأمة في مشروع حفظها بقيام دولة الإسلام المحقِّقة لتعاليمه وقيمه. ظهر ذلك التوجه في شكل واضح في كتابات الندوي والمودودي وسيد قطب ومحمد قطب وغيرهم، ثم أدت الصدامات العنيفة ذات البعد السياسي التي مرت بها الحركات الإسلامية إلى انشغال الكثير من مفكريها بالحفاظ على كياناتها بمواجهة أعداء التغريب وحملات التشوية، ما جعل سؤال النهضة وأدبياتها من ثانويات الخطاب الإسلامي بعد منتصف القرن العشرين، باستثناء مبادرات مهمة قدمها مالك بن نبي والطاهر بن عاشور وعلال الفاسي تجاوزت هموم المواجهات الفكرية والمدافعات السياسية التي أُدخلت الحركات الإسلامية في أتونها ولم تخرج حتى اليوم. ويمكن من خلال تلك المقدمة التأريخية لسؤال النهضة التعليق على مدى هامشية السؤال النهضوي في الخطاب الإسلامي المعاصر وانعكاس ذلك على مشاريع التجديد والتغيير الراهنة، ولعلي أعرضها من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تأتي غالبية انجازات الصحوة وتأثيرات الحركات الإسلامية في مجالات مقاومة حملات التغريب ورد محاولات التشكيك بقيم الإسلام وتعاليمه، وقد قُدِّمت خلال اكثر من ثلاثة عقود مشاريع رائدة في ذلك، ولكن هذا النتاج جاء في مقابل تجييش المجتمع في خنادق المواجهة لصد تلك الحملات، حتى لو اختفت مبررات تلك المعارك من ساحات جيل اليوم، هذا الجيل الذي بقي يستلهم الحذر والقلق الشديد إزاء كل المنتجات الغربية كحالة واحدة صلدة لا تقبل التفكيك أو إعادة النظر، ولكن معطيات العصر وثوراته التقنية والتواصلية فتحت الأجواء المغلقة للوافد الثقافي والاجتماعي الغربي ما جعل فكرة التخندق تثبت سذاجتها واستحالتها في آنٍ واحد، وبالتالي برزت تساؤلات عدة طرحها جيل الشباب اليوم حول موقفهم من الغرب والاستفادة من المنتجات الفكرية والفلسفية لعصر النهضة الأوروبية، و مدى التعاون مع مؤسساته المدنية، وهل نجسّر القيم الأخلاقية التوافقية كمشتركات حضارية للحوار والتفاهم، إلى غيرها من التساؤلات التي لا يزال الخطاب الإسلامي المعاصر يبحث عن مخرج يتجاوز فيه هذه الأزمة وليس حلولاً واقعية تبعث جدواها في نفوس وعقول متلقيه.

ثانياً: هذه الصراعات المتكررة والمفتعلة استنزفت كثيراً من طاقات الحركات الإسلامية، وأدّت إلى تغوّل الجانب السياسي على طبيعة أدبيات واهتمامات هذه الحركات، وأصبح الخطاب الأيديولوجي هو المهيمن على تفكير أبنائها، وغابت مسألة النهضة والحضارة عن طبيعة الوظيفة الاجتماعية، وإذا سألت بعض أبناء الحركات الإسلاميّة عن رؤيته لطبيعة الأزمة الحضاريّة التي تعيش فيها الأمّة أجابك بأنّ السبب هو البعد عن الإسلام، ثمّ إذا سألته عن طريق الخروج من التخلّف أجابك: الإسلام هو الحل، لكنّك إذا سألته كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟ وأين؟، أجابك بلغة إنشائية وعظية، بعيدة من لغة البرمجة وحسن صناعة الحياة وتوظيف قيم الإسلام في النهوض والعمران وتنمية البلدان.

ثالثاً: مشروعات النهضة هي برامج عمل تقتضي البناء والتغيير مهما كلف الأمر، ولكن بعض التيارات الإسلامية لجأ إلى مبدأ السهولة (قال به مالك بن نبي) الذي يجذب أصحاب النوايا الطيبة والفئات المخدرة المستكينة، ومن ثمَّ يستعاض عن متطلبات الحركة بوهج الشعارات وصراخ المطالبات العاجزة بالحقوق والحريات، بحيث يرضى الضمير المسلم بذلك الاشتعال الوقتي ثم يعود كل شي كما سبق من دون تغيير، إنها أشبه بالمشاريع الصوتية المدغدغة لعواطف الجمهور، والقليل منها ما ينفذ إلى العقول ولكن من غير بناءٍ فكري عميق ينظم الذهن ويدفع الفكر للحراك المجتمعي الراشد.

رابعاً: إن انتهاج طريق التكوين التربوي في الإصلاح مهم على مستوى الصلاح الفردي من دون التغيير المجتمعي الذي يتطلب كل القوى والفئات بقدر مشترك من التوافق العام على الأهداف وليس على معايير مثالية من الاصطفاء. إن مهمة الإصلاح تستوجب العمل على أساسات التغيير الثلاثة :إصلاح التفكير والتعبير والتدبير، والجانب التربوي يصب في علاج التعبير القولي والعملي بتهذيب النفس والسلوك الإنساني، في مقابل التقصير في علاج مشكلات التفكير العقلي والتدبير المعاشي. لذلك يُلاحظ أن الجماهير المتأثرة بالخطاب التعبيري التهذيبي مذهلة من حيث الإقبال والكثرة، ولكن عند حصول أي مواجهة فكرية مع عقله أو تحد واقعي لمثالياته بسبب انفتاح أو تعدد للثقافات والهويات، فإن قلقاً وتخبطاً يحصل للفرد يلجئه للانكفاء والانعزال أو الذوبان والتلاشي في الغير من دون مقاومة.

خامساً: يعمد بعض التيارات الإسلامية إلى التخويف والتحذير من الأطروحات الفكرية أو من ممارسات النقد والتقويم الذاتي، مع تهميش متعمد لقضايا الوعي الحضاري والنهضوي، تحسباً منها أن هذا الصنيع من أجل التماسك والبقاء وحماية الجموع من التفرق عند اختلاف الآراء، بينما هو نخر صامت داخل بنية التنظيمات قد يؤدي للفناء، لأن حاجة الواقع طاغية على مثاليات الخطاب، ومناقشة تلك المستجدات وبسطها الحوارات المفتوحة في الهواء الطلق ضرورة معاصرة يستحيل معها إنتاج القوالب الموحدة إلا أن تكون قد تجمدت أو غُيِّبت.

سادساً: تتجه بوصلة الخطاب الإسلامي في كثير من الأحيان للبحث عن أعداء من أجل التخندق للمواجهة، ظناً منها أن افتعال المعارك يضمن انكفاء الأتباع والجماهير نحوهم، وعدم التمرد والتماهي في الغير من المخالفين، ولذلك تكتسب المخالفة دائماً المفاصلة وتكتسي ثوب القدسية، هذه الركيزة حاضرة في كثير من أدبيات الخطاب الإسلامي بالتخويف والتحذير من العدو العلماني أو الطائفي أو الإسلامي المتساهل. هذا النوع من التترس الانعزالي وإضفاء التفرد بالحق والغيرة على الدين بهذه المقاومة الخادعة، أشبه بالمواجهة التي يفتعلها مصارع الثيران مع الثور الهائج الذي ينسى عدوه القاتل ويتجه بجهده وحربه على تمزيق القطعة الحمراء التي يراها تتراقص أمامه باستفزاز، إنه يناطح ويهاجم خيالاً لا حقيقة، إنه ينهك قواه ويبذل مجهوده في ميدان آخر لا يريده. والمتأمل في كثير من صراعات الإسلاميين يجدها لا تخرج عن هذا التسطيح، بينما الجهل والتخلف والاستبداد واستلاب الهوية وتنمية الوطن، قضايا ثانوية وأحياناً هامشية في خطابهم الإصلاحي؟!

سابعاً: الخطاب الإسلامي المعاصر عاطفي في التأثير وسطحي في التحليل ويضحي بالنفيس عند التنفيذ في كثير من مواقفه، لذلك أدواته في التغيير عادة ما تكون بسيطة وهشة عند التناول مع حدّة وشدة في المضي لها، لذا يتعامل مع المواقف والأحداث من خلال فهم ماضيها التاريخي، أو من وجهها المقابل او موجتها الأولى أحياناً، وواقع الصومال وأفغانستان والعراق وفلسطين ليس بعيداً من هذا التطبيق، كما يفسر السبب في الافتقار الشديد للمراكز البحثية والدراسات العلمية والاحتكام المعرفي لمناهج التوثيق والتحليل في رصد الظواهر والتعامل معها.

هذه بعض الرؤى والتأملات في واقع خطابنا الإسلامي المعاصر، لعلها تعيد بوصلة الاتجاه للمسار الصحيح قبل فوات الوقت وذهاب السائرين.

1. **ضمور الوعي وإشكالية الهوية في المهجر**

أذكر تجربة شخصية عشتها قد توضح حقيقة المراد من هذه الفكرة ، حيث كنت في بريطانيا أثناء تفجيرات انفاق القطارات في 7/7/2005 م ، وقد تأملت وتابعت ردود فعل الجالية الإسلامية ورايت أهمية تقويم المسار وتحديث الوجهة بعد عمر طويل لهذه الجالية مع إمكانية القياس والربط مع نماذج الجاليات في بقية العالم ، فقدأشارت صحيفة (الإندبندت) في 4 أغسطس 2005م إلى تقرير الشرطة البريطانية الذي كشف عن ارتفاع نسبة العنصرية ضد المسلمين في بريطانيا إلى 600% بعد أحداث التفجيرات التي شهدتها لندن.. وهذه الإحصائية زادت من مخاوف وقلق مسلمي بريطانيا الذين يتجاوز عددهم المليونين, علماً بأن أكثر من 70% منهم لم يتجاوز عمره (25) عاماً.وهذا يعني أنها جالية شابة مع أن عمرها الوجودي في البلاد يعود إلى قرن من الزمان!

هذا الوضع القلق الذي تعيشه الجالية المسلمة في بريطانيا ينذر باحتمال زيادة العنصرية بشكل أكبر في حال لو تجدّدت تلك العمليات الخاطئة الغاشمة .. هذه المعاناة النفسية -وربما المادية- التي يعيشها مسلمو بريطانيا شكّلت نوعاً من الإفاقة المتأخرة نحو كثير من المكتسبات التي لم توظّفها الجالية لصالحها مع امتداد عمرها الطويل في البلاد. فكم من المناصب الهامة والمجالات الحساسة في العمل السياسي والاقتصادي والإعلامي لم تُستثمر بشكل جيد من قبل المسلمين مع وجود الإمكانيات والقدرات الذاتية لذلك..؟! الحقيقة المُرّة أن الجالية -من وجهة نظري- كانت تعيش في بريطانيا من خلال حنين العودة إلى مسقط الرأس، ونسيت أن هناك أجيالاً تتابعت لم تتوارث هذا الحنين بل أصبحت مشدودة الوثاق في بلد المنشأ الأجنبي .. كما سعت الجالية في عدم الاندماج اجتماعياً من خلال التقوقع في أحيائها ومدنها الخاصة, لكن الأجيال الشابة القادمة والحالية قطعاً سوف تفك هذا الارتباط بالإنسياح التام في الحياة البريطانية بكل ما تحملها من تقاطعات مع معتقد المسلمين .. لذا كانت الحاجة ولا تزال ماسة وبشكل كبير لتوضيح الرؤية المستقبلية والتخطيط لها والعمل المنظم المدروس لكيفية التأثير في المجتمع بدلاً من التهاوي فيه ..

ولعل من أهم العبر التي ألحظها في الأزمة البريطانية وما نتج عنها, كون العنصرية التي أشرت إليها سابقاً وأثّرت في المسلمين بشكل كبير مع أنها لم تتخذ طابعاً متشدداً بسبب موقف الحكومة الصارم من العنف أو الاعتداء ضد الجالية ؛ كانت –وللأسف- تُمارس من قِبل المسلمين أنفسهم و بصور شتى, فهم -وإن مرّوا بدور الضحيّة- فقد مارسوا دور الجلاّد أيضاً وفي صور كثيرة, كان لها الأثر الكبير في حالات الإحباط والضعف لكل الجهود المبذولة في تنسيق الأدوار وتوحيد الكلمة وتكامل البناء, لقد تجذّرت العنصرية بين المسلمين أنفسهم، وليس من أعدائهم حتى أصبحوا شيعاً وأحزاباً ودولاً داخل بريطانيا بل في المدينة الواحدة! ودارت في المساجد والمراكز رحى الكثير من المعارك الفكرية والسياسية التي أثمرت خنادق عميقة يصعب من خلالها لمّ الشمل وتوحيد الصفوف .. وكم أتمنى أن يستفيد المسلمون من أزمتهم الراهنة فيراجعوا أنفسهم ليس كردة فعل آنية بل كخيار حقيقي للمستقبل حيال الكثير من القضايا المصيرية!! فلعل تلك النائبات أهم المحفزات لتلك المراجعة والتغيير الإيجابي ..

هذا المدخل السابق بدأت بالحديث به كواقع عشته وعاشه وتابعه الكثير من المسلمين, يؤكد بمرارة أن التعصب والعنصرية أصبحتا أشبه بالظاهرة المتكررة في المجتمعات الإسلامية .. وعادة ما ندفنها تحت السطح، ولا نثير الحديث حولها خوفاً من بعث الفرقة وتشتيت المسلمين كما نزعم أحياناً؟! , بينما الممارسات العملية أشد وطأة وأعظم فعلاً؛ فهي لا تنتهي عند حدّ المذهبية الفقهية أو العقدية أو العمل الدعوي أو التيارات الفكرية أو التعصب للإقليم والقبيلة والعرق أو تصنيف الناس وتوزيع الحصص والمناصب على أساس تلك الجاهليات، إنها أشبه بأنماط فكرية بل قنابل موقوته يسهل تفجيرها في أي وقت تحت مبررات كثيرة تحسن لغتها وأساليبها الدول العظمى وأصحاب المطامع السياسية الأخرى.وليس وضع العراق ولبنان والسودان والمغرب..عنا ببعيد .

هذا الموضوع أعتقد أنه من أشكل الموضوعات وأهمها في ظروفنا الراهنة, فما تمرّ به المنطقة من حراك جغرافي قد يعيد تشكيل الخارطة من جديد في كل البلاد العربية يحتم على الجميع نزع ذلك الفتيل الحارق لكل ما تم حصاده من مكتسبات. فمن الضرورة بمكان أن تكون هناك مبادرات قوية وعاجلة من أهل الفكر وأصحاب القرار لِرَأْب الصدع الذي حُفٍر بين أبناء البلد الواحد، و محاولة بناء حضور حقيقي لكل أبناء المجتمع من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتحويل هذا المجتمع المتعدد إلى تكامل وتنوّع حضاري يسهم الكل في إنجاحه والمحافظة عليه ..

أجزم أن هذا الموضوع ليس بالجديد على القارئ الكريم، لكن محاولة التغيير في الوعي كمرحلة أولى فضلاً عن التغيير الحقيقي في الميدان تمر بصورة بطيئة ومتخاذلة, ولا أدري: هل يمكن أن تكون صحوتنا هي مجرد البكاء على الأطلال بعد فوات الأوان؟!

1. **يقظة الوعي الحضاري وبداية النهوض :**

يشكّل غياب فقه مقاصد الشريعة وبُعده عن فقه الأحكام التكليفية وعزله عن الفروعيات الجزئية- أزمة واقعية على المستوى الفكري والتطبيقي للإسلام؛ فأصبحت الأحكام الشرعية نتيجة لهذا الغياب عبارة عن أفعال ديناميكية تصدر من اللاشعور الاعتيادي عند ممارسة الفرد لها دون فهم حقيقي لمراد الشرع الحنيف من هذه التكاليف أو مقصد الدين من هذه العبادات, كما أدّى هذا الغياب في فهم المقاصد إلى تأطير الشريعة في مجالات محدودة من الحياة, وقصر التعبّد على نواحٍ معدودة من العبادات العملية, فأثر هذا الفصام في تهميش دورها التفاعلي في "حفظ نظام الأمة واستدامة صلاح هذا النظام الشامل بصلاح المهيمن عليه، وهو النوع الإنساني" .. كما قال الإمام الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في معرض ذكره عن المقصد الرئيس لهذه الشريعة.
إن الأزمة الحقيقية التي تمر بها مجتمعاتنا الإسلامية في عصورنا الراهنة هي أزمة وعي بالدور الحضاري للأمة التي أراد الله –عز وجل- أن تكون شاهدة على كل الأمم وفي كل العصور!! يقول الحق تبارك وتعالى :( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...)[آل عمران: من الآية110] وقال سبحانه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً...)[البقرة: من الآية143] فالخيرية التي وُصفت بها الأمة إنما هي معلّلة بالدور الذي يجب أن تؤديه لتلك المجتمعات الأرضية من أمر بالمعروف بكل ما يشمله هذا المفهوم, وكذلك النهي عن المنكر بنفس الشمول أيضاً، وهذا المعنى الزائد عن الوصف هو من أهم الأسس في شهودنا الحضاري على الأمم, وقد نبه عمر -رضي الله عنه- على حقيقة هذا المفهوم الشامل الذي يتعدى الأحكام الفردية إلى الممارسات الحياتية المختلفة إلى الهيئات الخارجية للناس, وذلك لمّا رأى في أحد الحجج التي حجها هيئة سيئة للناس لا تليق بمقام أهل الإسلام، حينها قرأ قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس ..) ثم قال : "يأيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها".
إن المراد بحقيقة هذه الأزمة التي تعاني منها الأمة يكمن في أن رسالتها في الشهود الحضاري على الخلق جميعاً: إنسهم وجِنّهم، برّهم وفاجرهم، جمادهم وحيوانهم غير واضحة في وعيهم الديني فضلاً عن وجود هذه المعاني في واقع حياتهم .. بل أصبحت مغيّبة من دروس العلم وخطب الوعظ ولقاءات ومؤتمرات وكتابات أهل الفكر والعلم والنظر- إلا من رحم ربك- وأظن أن عددهم قليل بالنسبة لجموع أولئك النخب.
هذه الأهمية لا مجال لبسط الحديث حولها في مثل هذا المقال؛ بل يحتاج الأمر إلى فصول وأبواب حتى يتم تشكيل الوعي المدرك بالخطوة الأولى في مدارج العمل الراشد للتحضر .. ولعل الأهم في هذه المرحلة أن نثير أهل العزم والحزم من علماء ودعاة الأمة الإسلامية بأن يبعثوا من جديد هذا الوعي في عقول الجميع, ويقدموا لأفراد الأمة العدة الكافية والعتاد اللازم لخوض المعركة الحضارية التي زاد سعارها بعد اندفاع سيل العولمة في كل أودية الفكر والثقافة والاقتصاد في مجتمعاتنا؛ حتى الحملات العسكرية الغربية التي تُشنّ على بعض البلاد الإسلامية وغيرها تُسوّغ بأنها دفاع عن القيم والمبادئ الحضارية، ولا يقصدون هنا سوى حضارتهم دون غيرها. فأُقحمنا -شئنا ذلك أم أبينا- أمام صدام عملي بين الحضارات العالمية، وإن كان المفهوم النظري لهذا الصدام أكثر تسامحاً وتعقّلاً - ومع هذا التحفظ على المصطلح - فإن الأدوات الفاعلة في هذه الحرب المستعرة هي للعلم والتقدم والتسابق التقني والتنافس الاقتصادي على الموارد والطاقة، وليست في حقيقتها سباقاً في التسلح أو من خلال عسكرة الحرب.
فالمعركة ضارية، وتحتاج منا إلى تأهل يدفعنا إلى معرفة موقعنا على خارطة الأمم، ومحاولة اليقظة العاجلة بالعودة إلى أسس المدافعة والبناء، ولن يتم ذلك إلا بالبناء العلمي، وإشاعة العدل والمساواة، واحترام الإنسان والإحسان إلى كل شيء.
وبالعودة الصادقة الواعية للدين نضمن الحصول على كل تلك الأدوات الفاعلة للنهوض الحضاري, كما استخدمها النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعثه الأول للأمة.. فالعلم فريضة في شريعتنا على كل مسلم ومسلمة، والعدل والمساواة قواعد كلية عليها قامت كل أحكام الدين و الدنيا, واحترام الإنسان جاء من خلال حفظ كلياته الخمس: دينه ونفسه ونسله وعقله وماله، وانتظمت كل الأحكام الشرعية في تلك المقاصد الكلية, أما الإحسان فقد كتبه الله –عز وجل- على كل شيء حتى في أعنف حالات التعامل مع الآخرين, كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : "إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته" حتى الجماد والبيئة لم يُغفل حقها من التشريع؛ كما في النهي عن البول في الماء الراكد أو تحت الأشجار أو طرقات الناس، وكذا نهيه عن سبّ الدهر، والريح، أو قطع الأشجار المثمرة، إلى غيرها من صور التحضر الواعي الذي افتقدناه في مجتمعاتنا التي أصبحت مضرب المثل في التخلف والفقر، وشيوع الأمراض، وانعدام الحياة الكريمة للفرد العادي, فهل ستشكّل يقظة الوعي لدينا الإفاقة اللازمة لغفوتنا الحضارية الراهنة..؟!

1. **المدافعة الحضارية ..معيار العلاقة مع الاخر**

منذ أن خلق الله تعالى الخلق ، وكلّف آدم بالاستخلاف في الأرض ، ومسيرة الإنسان في صراع مستمر مع نزعات النفس الغلّابة لأجل التفرد البشري بالوجود ، أو معارك صراع الإنسان مع أخيه الإنسان حول الزعامة والنفوذ ، أو من خلال رهق الصناعة الفكرية أو جهد إنشاء الحضارات والمحافظة عليها ، كلها ملاحم اختلط فيها الدم بالعرق والفرح بالحزن والضيق بالفرج و البناء بالهدم ، إنها ملحمة المدافعة الباقية بين كل القوى المسيطرة في الأرض ؛ سواء كانت قوى مادية أو معنوية ، قوى للخير أو للشر ، و هذا الدفع الدائم بينها صاغ تاريخ الإنسان على مرّ السنين، و رسم حدودا كثيرة متداخلة بين الحق والباطل ،لم تكن لتعرف لولا شدة تلك المعارك واقتراب ميادينها من جميع البشر ، فساهم الوحي وتعاليم الرسل والأنبياء بضبط تلك العلاقات المتصارعة وتبيين حدودها والحكم على صحتها بالرد أو القبول . يقول الله تعالى :" وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" (سورة البقرة ،آية 40). وقال تعالى :" وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) " (سورة الحج) . هذه الآيات المحكمة العجيبة في معناها ودلالاتها على حقيقة هذا المسير الملحمي في حياة الإنسان ، تؤكد حقائق مذهلة لمن يخوض هذه الغمار من الدعاة والمصلحين ، أشير إليها بإيجاز ، مع التأكيد أنها محاولة للفهم والاعتبار من دلالات تلك الآيات وليس فيها جزم بالمعنى والله العالم بالمراد : أولا : أن المدافعة التي يقوم بها المسلمون عن الحق ليست عن المسلمين بالخصوص ، بل هي عن كل المظلومين المحرومين في الأرض على اختلاف أديانهم وبلادهم ، فلولا دفع المسلمين عن الحق الذي يؤمنون به لهدمت الصوامع والبيع لليهود والنصارى وغيرهم ، وهذا يجعل خندق المسلمين في المواجهة مع الظالمين والبغاة ليس مقصورا على جنس ودين ؛ بل هو جامع لمكونات عديدة تُظهر عالمية الشهود والريادة التي ينضوي تحتها الكثير من البشر .(انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور 9/281) . فالنصرة الإسلامية للمستضعفين في الأرض من خلال المواثيق الأممية والجمعيات الحقوقية ، هو من قبيل المدافعة المشروعة وحلف الفضول مثال نبوي للمشروعية. ثانيا : أن الظالم الباغي قد يُقهر ويمكّن للمؤمن في الأرض ليس بالعدد والعتاد المادي فقط ، بل بقدر إقامتهم للصلاة التي تعني إقامة الدين ، و إيتاء الزكاة يدل على الدور التكافلي بين المسلمين ،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في مدى تحويل الشريعة إلى روح تسري في مجالات الحياة المتنوعة ، فهذه الأدوات هي أدوات النصر المستديم في المعركة الحقيقية مع المعتدين والجبارين في الأرض .(انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور 9/284). غير أن هذا المعنى يُشعر أحيانا بالانكفاء عن المواجهة المادية والحسم الميداني ، ولا أظن الآية تعني ذلك بدليل الإذن بالمدافعة المادية ، ولكنها تدل صراحة أن التمكين غير الانتصار المادي ، فقد ينتصر القوي في المعركة ولكن يهزم في البقاء منتصرا ومحافظا على قوته ومطبقا لمبادئه التي ضحى من أجلها، لهذا جاءت معايير التمكين من خلال الفعل المجتمعي التكافلي الإصلاحي ، بشهادة حال الأمم السابقة التي ورد ذكرها في الآيات ( قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين..) التي أبانت تلك الحقيقة واضحة ولكن ليس للأعيان اللاهية ؛ بل للقلوب الواعية التي تسير في طريق الملحمة الشائك الصعب وهي تعلم أنه طريق النجاة والآمان. ثالثا:بيّنت الآيات أن التدافع بين أهل الحق والباطل ناموس كوني ،فلولا هذا الدفع لفسدت الأرض ، وهذا المعنى يؤكد أن دفع أهل الإيمان للباطل بمختلف أشكاله وأحواله ، ليسا دفعا بغرض الإهلاك والإفساد و إفناء المقابل أو الهيمنة وإلغاء الخصوصية، بل هو من قبيل الدفع بالتي هي أحسن ، كما في قوله تعالى :"ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96)" (سورة المؤمنون) . وقوله تعالى :"وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)" (سورة فصلت) . يقول الإمام الطبري في معنى الدفع :" ادفع يا محمد بالخُلّة التي هي أحسن، وذلك بالإغضاء والصفح عن جهلة المشركين والصبر على أذاهم، وذلك أمره إياه قبل أمره بحربهم" (تفسير الطبري 19/67) فالأمر هنا بالدفع بالتي هي أحسن وليس بالحسن فقط ، و هو متوجه للمشركين وليس المسلمين فحسب ، والحكم بان الآية منسوخة بآية السيف ، (كما ذكره الطبري و البغوي في تفسيره 5/427) غير صحيح بإطلاقه ومبالغة في الحكم بالنسخ لآيات كثيرة دعت للمسالمة بين المسلمين وغيرهم، يقول الإمام الزركشي، رحمه الله، في كتابه "البرهان في علوم القرآن": "ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف قول ضعيف، فهو من المُنْسأ - بضم الميم - بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، ليس بنسخ، إنما النسخ: الإزالة، حتى لا يجوز امتثاله أبدا.. فليس حكم المسايفة ناسخا لحكم المسالمة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته".( انظر: البرهان للزركشي: 2 / 43-44، علوم القرآن للدكتور عدنان محمد زرزور ص210) ،فالمدافعة بالمسالمة قد يكون في أحيان كثيرة هو من الدفع بالتي هي أحسن ولو كانوا كفارا ومشركين ، وما سمّي في عصرنا الحاضر بصدام الحضارات وما بُني عليه من نظريات عدائية وإقصائية لبعض الأمم والشعوب ، هو اتجاه نحو الإفساد من خلال تسويغات الصراع بين الحضارات ، والأمة الإسلامية في علاقاتها المدنية مع الحضارات الأخرى قائمٌ بشكل واضح نحو التدافع بالتي هي أحسن ، أو من خلال قانون التعارف و إلغاء التمييز إلا على أساس التقوى ، كما قال تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)" (سورة الحجرات). يقول ابن عاشور في تفسيره :"واجب بثّ التعارف والتواصل بين القبائل والأمم وأن ذلك مراد الله منهم" (التحرير والتنوير 14/32). وهذه المعاني الريادية للأمة تؤكد مكانتها في الشهود على غيرها من الأمم ، ولا تكون أمة شاهدة على غيرها إلا بالمعرفة التي تنافي الشك و الجهل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للشاهد :" ترى الشمس، قال: نعم، قال: على مثلها فاشهد أو دع" (صححه الحاكم) ، والشهادة أمانة في التحمّل وعدالة في التبليغ ، فالأمة الشاهدة على غيرها من الأمم لابد أن تمتثل لذلك الوصف بالمعرفة المكتسبة و تعريفها للغير ، وبالعدالة والأمانة التي تسري بين أبنائها من خلال صلاحهم وقيامهم بشروط التمكين الذي ورد في أية المدافعة من خلال القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تكون أمتنا بخير وعلى مستوى التحضر المنشود والخيرية الظاهرة إلا بتلك الأوصاف المحتمة ، وعلى هذا السنن لا ينبغي أن ينفك الخطاب الإصلاحي عن هذه المقومات الضرورية لمشكلات التخلف والضعف التي نعاني منها ، كما لا ينبغي التعامل مع الأمم والشعوب على أساس المبارزة والمواجهة القتالية ، فليس هذا الميدان سوى حلقة واحدة في سلسلة الميادين التنافسية الأخرى القائمة على المعرفة والقيم ونشر الفضائل بين الخلق ، مما تخلت عنها كثير من مجتمعاتنا الإسلامية وامتنعت من الخوض في غمارها ،بالرغم من ضرورتها في صناعة التغيير و القيام بالتبليغ .

**خامسا: المسلمون في أمريكا اللاتينية- مقترحات وملاحظات:**

تحدثنا عن التعايش الإيجابي وخدمة الوطن وعلاقتهما بنهوض الوطن السابق واللاحق والجاليات التي تلمّ شعث المغتربين وتشكل أسرتهم الكبيرة الممتدة، ولا بد من أن ننـزّل هذا كله على الجالية التي حللنا ضيوفاً عليها، وهي جالية تحمّل أبناؤها كل مشاقّ الاغتراب وآلامه، وأصروا وواظبوا على تقديم كل ما يستطيعون لتحقيق آمالهم وأحلامهم، وجاهدوا لرفعة شأن البلاد التي غادروها مضطرين ساعين إلى الاستزادة من العلم أو متطلبات الحياة الكريمة، وكان أفرادها خير رسل لأمتهم وخير دعاة لقيمها ومبادئها.

**وسوف أثير بعض المقترحات** التي أرى أن على مسلمي أمريكا اللاتينية أن يهتموا بها, ومن ذلك:

1. **الانتقال من مرحلة "الجالية" إلى مرحلة "المواطنة" :**

فقد تسامع المسلمون بهذه الأرض الجديدة وما فيها وما تحتاج إليه فطفقوا يفدون إليها فرادى ثم مجموعات من غير تنظيم ولا تخطيط من بلاد الشام ومن إفريقية ثم من بلاد الشرق الإسلامي. وقد تحملت الموجات الأولى الضنك والمشقة والغربةوالوحشة، مع أن معظمهم قد فروا من الضنك والعوز في بلادهم، أو ضاقوا ذرعاً بما قاسوه من ضغط وكبت سياسي.

وقد قدم المسلمون الأوائل من بلاد الشام ومصر، كما شهد مطلع القرن العشرين هجرة إسلامية ملحوظة، فقد كان المسلمون المهاجرون يبحثون عن حياة جديدة **في** فترة ما بين الحربين العالميتين. وسكن المهاجرون الأوائل **في** العواصم والسواحل وكان يجذبهم السلام والهدوء اللذان كانت تنعم بهما البلاد، بالإضافة إلى الروابط الأسرية **في** المجتمع التي كانت تذكرهم بمجتمعاتهم العربية. وكانت الغالبية العظمى منهم من التجار الصغار المتجولين، إذ كان الاقتصاد **في** مطلع القرن الماضي يرتكز في غالبيته على تبادل السلع والبضائع.

 وتجاور كل فريق منهم تجمَعُ أفراده اللغة الأم أو الدولة أو البيئة، وبذلك أصبحت تجمعات هؤلاء في كل مدينة نزلوا فيها مكاناً يأوي إليه كل مغترب عربي أو مسلم رمت به المقادير في هذا المنقطع من الأرض. وتكونت بذلك مجتمعات المهاجرين وتكاثرت أعدادهم فتشكلت جاليات عربية وأوسع منها إسلامية عززها وقوّاها إمكانية التفاهم بين هؤلاء المغتربين بلغة عربية عامة بلهجات متعددة ولكنها قابلة لأن يفهمها كل مغترب منهم، وزاد تلك التجمعات لُحمة وحدة العبادات التي يؤدونها وتقارب العادات والتقاليد التي يحملونها.

أما اليوم فالمسلمون في هذه البلدان ليسوا مغتربين, ولا هم بجالية مؤقتة بل هم أبناء وطن فيهم من عاش فيه عقودا عديدة, وفيهم من ولد فيه, وفيهم من ذاب في ثقافته على نحو لا نريده للآخرين. ولذا ينبغي الانطلاق من هذه الشعور. ولا ينافي ذلك التعلق بالبلد الأصلي على نحو لوجود قرابات وعلائق أسرية ينبغي عدم التفريط بها.

1. **عدم الذوبان في الثقافة المحلية:**

حفظ التجمع السكني والتوحد اللغوي والديني للمسلمين الترابط بينهم وبين الوطن الأم الذي جاؤوا منه، وحماهم ذلك من الذوبان في المجتمع الجديد, فكانوا بقلوبهم وعواطفهم مع عالم آخر يضم من خلّفوهم وراء ظهورهم من الأقارب والجيران والأصدقاء، هؤلاء الذين لم تطمس صورَهم من ذاكرة المغتربين علاقاتٌ أسرية جديدة من البيئة الجديدة.

وقد تغيرت الصورة مع الأجيال اللاحقة التي تربت في البيئة الجديدة, فنشأ خوف جديد لدى المسلمين من أن تذوب الهوية [الإسلامية](http://www.da3wh.com/vb/showthread.php?t=1536) للكثيرين **في** قلب التيار الكاثوليكي السائد. ومن المؤسف أن هنالك من أبناء المسلمين من اعتنق المسيحية، باستثناء فئات معينة أرسلت أولادها إلى البلاد العربية لإتقان اللغة العربية والانتفاع بالثقافة الإسلامية.([[5]](#footnote-5)) ومع وسائل الاتصال الحديثة والنقل السريع صار أمر الحفاظ على الهوية أيسر في جوانب منه, حيث الارتباط بالأهل في البلد الأصلي وزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة صارت مهيأة على نحو لم يعهد من قبل.

ولعل وزارة الشؤون الإسلامية في السعودية ونظيراتها في البلاد الإسلامية أن تسهم في على نحو أوسع في دعم جهود مسلمي أمريكا اللاتينية للحفاظ على هويتهم ووجودهم من خلال عدة محاور منها:

* توسيع إشراكهم في برامج الحج التي تقام سنويا خلال الموسم.
* توسيع قبول أبنائهم في المعاهد الدينية والجامعات.
* استقبال وفود منهم (من شباب وشابات ورجال ا‘عمال...) وربطهم ببلدانهم المسلمة, وتقوية شعورهم بأنهم ينتمون على أمة تعدادها مليار ونصف المليار.
* دعم جهودهم المحلية في مجال إنشاء الجمعيات والمؤسسات ووائل الإعلام من إذاعات وقنوات فضائية.
* إرسال الدعاة الموسميين إليهم وكفالة دعاة محليين ومتابعتهم.

وعلى كل حال, يبقى المسلمون بحاجة ماسة إلى المرشدين والدعاة الذين يحسنون مخاطبة الناس هناك بلغاتهم كالإسبانية والبرتغالية، وإلى مدرسي اللغة العربية والقرآن الكريم والإسلام، وإلى الكثير من الكتب التي تتحدث عن الإسلام بالإسبانية والبرتغالية، وإلى نشر ترجمات معاني القرآن الكريم بهاتين اللغتين، وإلى الإكثار من منح الطلاب في الجامعات الإسلامية المتخصصة في الدراسات الإسلامية لأن أبناء الجاليات أكثر تفهماً لواقع الجالية وظروف البيئة والحاجات وأكثر تأثيراً في السامعين لتمكنهم من لغة الحديث فهماً وتفهيماً.

1. **ضرورة التعريف بدين الإسلام:**

أرى أن المسلمين ينبغي أن ينتقلوا من الخوف على الهوية إلى مرحلة أكثر تقدما, وهي التعريف بدينهم وقيمهم وحضارتهم التي ينتمون إليها؛ إذ إن الجهود المبذولة للتعريف بالإسلام ما زالت قليلة, ولو فكرنا معا في سبل ذلك لوجدنا أن الأمر يسير. وأحب أن أذكر إخواني بقول الله تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) (الزخرف44 ) قال ابن كثير في تفسيره: "قيل معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي مَن سواهم... {وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له."([[6]](#footnote-6))

فمسؤوليتنا أمام الباري عز وجل عن هذا الدين وتبليغه للناس كبيرة, ونسأل الله أن يعين المسلمين على القيام بحقها.

1. **الحرص على تعزيز العلاقات:**

تدرك بلدان أمريكا اللاتينية أن للمسلمين فيها دوراً في نهوض هذه البلاد التي اتخذوها موطناً جديداً لهم، فقد شاركوا في عمران الأرض وزراعتها, بل كان لهم مشاركات بناءة في الميدان المالي والسياسي حتى في أعلى المستويات. وكل هذه أمور يدركها كل من يلمّ بالحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية لهذه البلدان، فقد كانوا بهجرتهم إلى هذه الديار مدداً بشرياً، يقدم لها الأيدي العاملة والعقول المفكرة والمبدعة بعد أن اكتملت شباباً وقوة وعلماً وطموحاً. كما أنهم لم ينعزلوا اجتماعياً متقوقعين على أنفسهم بل خالطوا المجتمعات وساعدوا على فتح أسواق جديدة لتصريف ما تنتجه البلاد من مواد زراعية أو صناعية أو توسيع للشركات الصناعية والتجارية ومنتجاتها.

وعلى المسلمين في أمريكا اللاتينية أن يستمروا رسلَ سلام وخير بين بلدانهم الحالية وبلدان العالم الإسلامي في مجال العلاقات الثقافية والسياسية والتجارية وغيرها. ولدى بلدان أمريكا اللاتينية فرص كبيرة لتعزيز علاقاتها مع بلدان العالم الإسلامي عامة وبلدان منطقة الخليج بصفة أخص نظرا لما تتميز به من دخل اقتصادي ونشاط تجاري كبير. ويحتاج المسلمون على مؤسسات تعين على التخطيط لذلك وتنفيذه, وهو ما سيرد في الفقرة التالية.

1. **الاهتمام بالمؤسسات ذات النفع العام:**

فالمسلمون يحتاجون إلى عدة مؤسسات تحفظ لهم دينهم وهويتهم منها: المساجد والمدارس والجمعيات والمؤسسات المالية والوقفية والمؤسسات الخيرية المانحة والنوادي الاجتماعية والإذاعات ...ونحوها.

وهذه تقتضي أن يتفرغ لها أناس مدربون على غرار ما تقوم به الفئات الاجتماعية الأخرى النشطة في مجال المؤسسات العامة. وميزة هذه أنها ذات عمر أطول, فهي تبقى حين يذهب الأفراد بوفاة أو بغيرها. كما أرى أن المسلمين بحاجة ماسة إلى مؤسسات حقوقية وجمعيات لحقوق الإنسان لتوعيتهم بحقوقهم وما عليهم من واجبات والدفاع عنهم ضد أي تشويه لسمعتهم أو دينهم أم مجتمعهم.

كما أن التعريف بالإسلام المشار إليه أعلاه في الفقرة السابقة سوف يتحقق بشكل أكفأ حين تتولاه مؤسسات متخصصة تقوم على التخطيط للعمل وتنسيق الجهود وطباعة الكتب والمنشورات اللازمة لذلك.

ولا بد من الإشارة إلى دور المؤسسات العلمية والجمعيات الخيرية الإسلامية في البلاد الإسلامية، وخاصة في المملكة العربية السعودية في دعم المسلمين في أمريكا اللاتينية، من ذلك الجامعات التي تستوعب أعداداً من أبناء الجالية، وما تقدمه الجمعيات الخيرية الإسلامية من بناء مساجد ومعاهد ومدارس. وهم يعملون جميعاً على خدمة المسلمين ومساعدتهم والمساهمة في تحسين مستواهم الديني والعلمي والصحي والثقافي والاجتماعي.

أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيديهم جميعا إلى كل خير، وأن يكونوا عند حسن الظن بهم بل أحسن مما نتوقع منهم.

وصلى الله على نبينا محمد بن عبد الله وآله وصحبه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

**د. صالح بن سليمان الوهيبي**

الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي

ص ب 10845 الرياض 11433

هاتف: 0096612050390

sswohaibi@wamy.org

1. يقول ابن كثير في تفسيره (ج3/ص168) فتشقى: فتتعب وتَعنَى وتشقى في طلب رزقك، فإنك في الجنة في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة.. ويقول الطبري في تفسيره (ج11/ص253): ...وقيل: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده في البدن... فإن ضيعتَ الوصية وأطعت العدو أخرجكما من الجنة فشقيت تعباً ونصباً.. [↑](#footnote-ref-1)
2. - في مقال له بعنوان: " فقه التعايش مع غير المسلمين" منشور في موقع (أنا المسلم). [↑](#footnote-ref-2)
3. - موقع: **الحوار**/مكتوب. [↑](#footnote-ref-3)
4. - موقع "كنانة أون لاين" لأحمد السيد الكردي. [↑](#footnote-ref-4)
5. - موقع مكتوب بلوغ. مقال لـ د.خلدون مثقال سليمان عامر. [↑](#footnote-ref-5)
6. - **تفسير ابن كثير**- المكتبة الشاملة (تفسير سورة الزخرف) [↑](#footnote-ref-6)